تعالوا إلى كلمة سواء

**د. محمود أبو الهدى الحسيني**

**في الملتقى الفكري: تعارف الحضارات والرسالات في ظل الأسرة الإنسانية الواحدة**

**دمشق- 2008/1/13**

بين واقع عالمي يعاني من الفشل، وأحلام تتبرج بألوان النجاح تدور رحى كثير من ملتقيات حوار الأديان في العالم، نعم .. قد لا نشعر بهذا الفشل في إقليمنا لخصوصية قديمة جديدة فيه، وعيشٍ مشترك طويل أسسته العهدة العمرية، ودعَّمته الأيام أعواما فأعواما، لكنَّ الواقع يختلف من حولنا كثيرا، والرؤى تتفاوت بين الأطراف وتتباين.

وقبل الحديث عن حوار المسيحية مع الإسلام ثمة مشكلة تتمثل في تمرد المادية الإلحادية في الغربِ على التدين، وانتشار ظاهرة اللادينية، وشيوعِ التحلل الخلقي في المجتمعات هناك، وقبل الحديث عن حوار اليهودية مع الإسلام ثمة مشكلةٌ أيضا تتمثل في هيمنة الصهيونية عليها، وتسييسها نحو عداء الآخرين.

إننا في إقليمنا لا نشعر بكل ذلك، لأنَّ الغالبية المسلمة في بلادنا تحترم الآخر، وتنطلقُ من مبادئ الإسلام التي تدعو المسلم إلى إكرام المخالفِ وبره أيا كان معتقده طالما أنه لا يندرج في الحربيين، ولأنَّ الأقلية المسيحيةَ تحترمُ تاريخَ العيشِ المشتركِ الطويل وتؤمن بوحدة المصير.

لكننا ونحن نخاطبُ الضيوفَ الوافدينَ من الغرب الذين يُراقبون العالم عن كثب، ويرصدون تغيراتهِ في كل مكان، لا ينبغي أن نحصر كلماتنا في الفخرِ بالنادر الإقليمي القريب، غائبينَ عن معضلاتٍ كثيرة يضجُّ بها العالمُ من حولنا، بلْ إنَّ كلامنا على ذلك العموم وهو ينطلق من دائرة هذا الخصوص يعني كلاما يخرجُ من محلِّ الاستقرارِ الواعي إلى بؤر الفوضى الحائرة التي تنتظرُ الحلول، وترتقبُ سبل الخلاص.

وأقول باختصار: إنَّ إسلامنا علمنا أمورا ثلاثة:

- أولها تخيير الإنسان في معتقده لا إكراهُه (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) { 265 } البقرة، (فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن
- شَاء فَلْيَكْفُرْ) الكهف فلا يكرهُ الإسلام أحدا في الدنيا على اعتناقه.
- ثانيها البرُّ والإحسانُ إلى غير المعتدي المحاربِ مهما كان مخالفا في المعتقد (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {8}إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ

عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ { 9 } الممتحنة.

- ثالثها الدعوة بالحجة والمنطق والبرهان إلى الإسلام، باعتماد (التي هي أحسن) منهجا وسلوكا وخلقا (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (125) النحل ، من غير عدوانٍ ولا بغيٍ ولا إساءة لأحد، ومن هذا المحور، نادى الإسلام اليهودية والمسيحية بندائه العالمي الشهير: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ ) { 64 } آل عمران فخصَّ رسولُ الله r بهذه الكلمة نجاشي الحبشة ومقوقس مصر وقيصر الشام، و لم يذكرها لكسرى الفرس، لأنه لم يكن كتابيا، ومضمون هذا النداء يتضمن أمورا مهمة.

فقوله (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ): إلغاء للعزلة وتحفيز على المبادرة إلى اللقاء، فالعزلة توجد الحواجز، واللقاء يؤسس للتعارف، وهو حين يَنسب النصارى واليهود إلى الكتاب، وهو نفس الاسم الذي أطلقه على القرآن فإنه بهذا ينبه إلى وحدة المصدر الذي أنزل كتاب اليهود وكتاب النصارى، فهو القائل في أول المصحف: (الم {1} ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {2} البقرة

وقوله: (تعالوا): فيه رغبة في الإكرام، والعربي يعلم أن الإنسانَ لا يدعو إليه أحدا ليغدر به ولكنه يدعوه ليكرمه، وقد ورد في الحديث المتفق عليه: "مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ".

وقوله (إلى كلمة): يفتح باب فهم، فقد أخبر القرآن أنَّ الكلمة نوعان: طيبة وخبيثة، أما الطيبة فإنها كالشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأما الخبيثة فإنها كالشجرة التي لا جذور لها في الأرض ولا قرار، وحين يدعو القرآن إلى كلمة تتصل الأرض فيها بالسماء فتؤتي أكلها بإذن ربها فإنه بالتأكيد يدعو إلى كلمةٍ ربانية، لا تخرجُ عن الأهواء البشرية ولا تنتجها الشهوانيات النفسية، تقبلها فطرة القلوب، وتعيها استعدادات العقول، وتعشقها عواطف الأرواح.

وقوله: (سواء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ): تعني أن لا نكون بهذه الكلمة متميزين عن أحدٍ من أهل الكتاب بل نكون فيها معهم على السواء.

ووضح مضمون هذه الكلمة التي يدعو إليها فقال:

(أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّه وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا): فيكونُ الله وحده معبودَنا، لا ننسبُ إلى غيره الألوهية، ولا نساوي به غيره.

جاء في الباب 17 من إنجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام وهو يخاطب الله تعالى: **(وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته).**

وجاء في الباب 19 من إنجيل متّى الآية (16- 17):

**(وإذا واحد تقدّم وقال له: أيها المعلم الصالح! أيَّ صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله).**

وفي انجيل يوحنا ( 44/5 ) ( **كيف تقدرون أن تؤمنوا وانتم تقبلون مجدًا بعضَكم من بعضٍ، والمجدُ الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه).**

وفي متى ( 10/4 ) **(للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد)**

وقوله في الكلمة (وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ ): يعني أن لا نتلقى التشريعَ الموجه في العبادة والمعاملة من البشر، بل نلتزم تشريعَ الله تعالى وحده، فالإنسانية كلها على قدم المساواة في العبودية لله تعالى بين يديه وحده، لا يتميز أحد منا عن أحد برتبة ولا درجة في الدين، والأمر في التفاضل بين الرتب والدرجات متروك لله تعالى وحده (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) {32} النجم

وقوله: (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ): هو إعلانُ انتماءٍ إلى الإسلام وهو استسلامٌ لمرادِ منَزِّله من غير بغي ولا إساءة ولا عدوانٍ على من رفض هذه الدعوة، وأصر على ما هو عليه.

تلك هي باختصارٍ مهمة المسلم، ولا يتجاوز غير هذه المحاور اثلاثة في سلوكه مع الكتابيين.

إننا نتمنى أن نسمع من غير المسلمين في العالم مثل هذه الدعوة التي تلتزم الحوار وتستعمل المنطق.

وبمثل هذه الكلمة تتحول الكلماتُ إلى سلوكٍ فاعلٍ منتج لا يتوقف عند مجرد المجاملات.

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ { 49{ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ { 50 } إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ { 51 } آل عمران

مسلم / أبو هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمكم؟".

مسلم / قال أَبو هُرَيْرَةَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: "وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم حَكَما مُقْسِطا. وفي رواية لمسلم/ إِمَاما مُقْسِطا وَحَكَما عَدْلاً".